ثورية الشعراوي

اندلعت ثورة سنة ١٩ وانطلقت من الأزهر الشريف.. ومن الأزهر خرجت المنشورات التي تعبر عن سخط المصريين ضد الإنجليز المحتلين.

كان الأزهر هو منطلق الثورة. وهو مركز التجمع الثوري.. كانوا يأتون إليه من مختلف أنحاء البلاد. وكان شيوخ الأزهر وطلابه في مقدمة صفوف المتظاهرين وأكثرهم جرأة وحماس وتضحية ، وقد عمل علماء الأزهر وطلبته ورجاله على بث الروح الثورية في الأحزاب وفي مختلف طبقات المجتمع. وكانت ساحاته وأروقته مراكز لتنظيم المظاهرات الثورية الكبرى وكان يموج كل مساء بالآلاف من البشر لسماع الخطب الحماسية النارية والتي تشعل فيهم قوة الغضب الثوري. ولم الشعر عن المشهد فقد كانوا يستمعون أيضا إلى القصائد الحماسية التي تلقي ضد المستعمرين.

وكان يتصدى للإلقاء هذه الخطب والقصائد طائفة كبيرة من قادة الثورة وخطبائها من العلماء. حتى المسيحيون كانوا ينضمون لأمواج المسلمين في الأزهر الشريف ويخطبون أيضاً في الأزهر.

وكان سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ من رجال الأزهر. فبعد أن تعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن في مكتب القرية. انتقل إلى الجامع الدسوقي حيث أتم تجويد القرآن الكريم وتلقى دروسا في النحو والفقه ثم دخل الأزهر عام ١٨٧١ ليتم دراسته ويتعلم على يد شيوخ هذا الصرح الرائع.

لم يكن دور الأزهر ورجاله في ثورة ١٩ إلا استمراراً لدوره الجبار في الحركة الوطنية على طول تاريخه إلى جانب أدواره الروحية الخالدة التي قاوم فيها شتى تيارات الإلحاد والانحرافات والمذاهب الهدامة والحملات

التبشيرية ودعاة التغريب والانسحاق الحضاري.

وبعد الثورة فكروا في أن يفرقوا جموع الأزهر ! وقالوا فيما قالوا:

" أفضل طريقة أن ننشئ معهد أزهرية إقليمية " حتى لا يتجمع ويتكتل الأزهريون في موقع واحد.. في قلعة الأزهر الشريف في القاهرة.

فأقاموا معهدا في أسيوط وبعده قنا ثم معهد طنطا ثم معهد الزقازيق في سنة ١٩٢٤.

وكان معهد الزقازيق هو الذي التحقت به سنة ١٩٢٦.. وهو الذي تربينا فيه. لم يكن معهد الزقازيق على نظام الأزهر القديم. بل كان على نظام المدارس.. كان " حاجة فخمة " " حسب تعبير الشيخ ". مبنى كبير وفخم وكان لنا سكن " تحت المبنى ".

وكل طالب له سرير. وكان نظام الدراسة ٩ سنوات. القسم الابتدائي ٤ سنوات ونحصل بعدها على شهادة الابتدائية الأزهرية التي كانت تمنحنا لقب "شيخ "فيقال" "يستحق هذه الشهادة الشيخ محمد متولي الشعراوي".

ويكمل الشيخ ذكرياته.." هذا النظام الجديد الذي علموه في الأزهر بعد ثورة ١٩ والذي تضمن إقامة معاهد أزهرية في الأقاليم. وكان من بينها معهدنا في الزقازيق.. هذا النظام صدر به قانون سنة ١٩٢٤ وهو القانون الذي أصدره الملك فؤاد. وقال فيه " أحمد شوقي – أمير الشعراء. أجمل ما قيل في الأزهر الشريف. وهي قصيدته الرائعة وكان مطلعها:

قم في فم الدنيا وحي الأزهرا وانثر على سمع الزمان الجوهرا

واجعل مكان الدر إن فضلته في مدحه خرز السماء النيرا

واذكره بعد المسجدين معظما

obeikandi.com

في هذه المرحلة: مرحلة الانهماك في الحركة الوطنية والحركة الأزهرية الثورية. والاعتقال ومحاولات الكر والفر والتخفي بعيدا عن المباحث "والذي كان يسمى القلم السياسي ".

يقول الشيخ: العودة إلى تلك الأيام البعيدة هي عودة إلى أيامنا الجميلة أيام الشباب والنضال والجهاد أيام الثورات والانتفاضات. من أجل الأزهر الشريف. ومن أجل الوطن ، ومن أجل رسالة الإسلام.والنهوض بعد طول ركود ورقود.. ولا ننسى أن البلاد وقتها كانت تحت الاحتلال البريطاني. وقال الشيخ: " لقد قبضوا علينا أكثر من مرة. وفصلونا من الأزهر أكثر من مرة فصلوني أنا والشيخ الباقوري وفهمي عبد اللطيف رحمة الله عليهما وهذه حكايات كثيرة..

***

ومن الحكايات التي رواها الشيخ أثناء سرده لذكرياته عن هذه الفترة يقول:

" كنا في عام ١٩٣٤.. وكنت في هذا الوقت طالبا في الأزهر. في المعهد الثانوي الأزهري ، بالزقازيق.

وكنت رئيسا لاتحاد الطلبة. وكنا في ذلك الوقت نأخذ بمبادئ الوفد في الحركة الوطنية. ونأخذ بمبادئ أساتذتنا في الأزهر إذا كان الأمر يتعلق بالحركة الأزهرية وشئون الأزهر. وكان النحاس باشا في الحكم ثم أقيل. أقاله الملك. وغضبنا لذلك. وجاءت ذكرى سعد باشا زغلول.. وكنا قد تعودنا أن نحييها في بلدنا " دقادوس ". وكانت قرية كبيرة في ذلك الوقت.

وفي الاحتفال بهذه الذكرى وقفت وقلت غاضبا مما جرى للنحاس

باشا ومن الملك الذي أقاله "

وفي هذا السياق يسرد الشيخ قصيدته التي قالها في هذه المناسبة:

ما منطقي لك والحقيقة تخجل

قد جدت الدنيا وشعبك يهزل

في كل عام تشتكي أوصابنا

ونؤمل الآتي فيقسو المقبل

مصر الأسيفة بح منها صوتها

فضراعة محمومة وتوسل

وارحمتاه للمستجير بجائر

***

قال الشيخ " لقد اعتبروا هذه القصيدة عيبا في الذات الملكية "

وأخذوا يترصدونني للقبض على.. لكنني كنت أهرب منهم في الزقازيق وفي دقادوس.

كانوا يعتبرون الزقازيق هي مهد الثورة والغضب لإقالة النحاس باشا ومنعوا الدراسة بها.

لكننا كنا مستمرين في التحريض على التظاهر والإضراب والاحتجاج بالطلبة وتبليغهم بما اتفقنا عليه.

كنت أتخفي في صورة " بائع العيش " وأحمل على كتفي طاولة مملوءة بالخبز. وأركب " عجلة " وأدخل إلى القسم الداخلي والتقى بزملائي. ونعقد

obeikandl.com

اجتماعا نتدارس فيه الخطوات التي سنقوم بها ، وكان زميلي فهمي عبد اللطيف يتخفي في صورة " سمكري " ويحمل " البوري " في يديه ويدخل ونلتقى معا في القسم الداخلي.

وقد احتار بوليس الزقازيق في القبض علينا. أنا وزميلي فهمي عبد اللطيف.

لكنهم تمكنوا من فهمي عبد اللطيف فوقع في الخدعة التي استطاعوا بها القبض على الكثيرين من زعماء الطلبة "

وعن هذه الخدعة وكيفيتها وكيف أنه من خلالها استطاع " البوليس السياسي وقتذاك من الإمساك بالكثير من زعامات الطلبة يقول الشيخ:

" كانت خدعة المخبرين هي أنهم يندسون في المظاهرات.. ثم ينادون على الطالب الذي يريدون القبض عليه بصوت مرتفع وكأنهم زملائه ، فيلتفت إليهم أو يرد عليهم بما يفيد أنه موجود هنا. فيقبضون عليه !

وقد أدركت أنا هذه الخدعة. فلم أكن ألتفت أو أرد على أي شخص يناديني ! بل إن هذا النداء كان ينبهني إلى الخطر فكنت أحتاط أكثر وأبتعد وأزوغ منهم !

ولما تعبوا ويئسوا من مطاردتي هنا وهناك. لجأوا إلى الطريقة التي تمكنهم من القبض علّي بسهولة.

ذهبوا إلى بلدتنا " دقادوس ".. وألقوا القبض على والدي.. وعلى شقيقي الأصغر.. واعتقلوهما. وعرفت البلدة كلها أن والدي وشقيقي قد اعتقلا بسببي.. وأودعا السجن في الزقازيق.

وعرفت بذلك فطار صوابي. وركبت القطار إلى الزقازيق لكي أسلم

نفسي للمباحث وأقول لهم: أفرجوا عن والدي وعن أخي الصغير واقبضوا علي أنا وافعلوا ما تشاءون.

ويكمل الشيخ.. عندما وقفت أمام المحقق دخل علينا المأمور وكان اسمه رشدي ماهر.. وقال لي وهو يتشقي:

والله ووقعت يا شعراوي!

فقلت له:

بيدي.. لا بيد عمرو!

فقال لوكيل النيابة:

آفة البوليس أنه يعمل في أمة جاهلة:

فقلت له: لا.. آفة الأمة أن البوليس الذي يعمل بها جاهل. لأنك جهلت مهمتك.. مهمتك أن تأتي بي إلى هنا. وتقدمني لوكيل النيابة. ثم تخرج. ولذلك فأنا سأمتنع عن أي كلام إلى أن تخرج من هنا وبالفعل خرج.

ومضى الشيخ يقول: كان القاضي الذي تولى قضيتنا فيه وطنية تحكمه. فكان يمد حبسنا ويجدده كل أربعة أيام بدلا من أن يفرج عنا وكان ذلك يضايقنا كثيرا..وقد ذهب إليه بعض الناس يقولون له: إن هؤلاء طلبة. فكان لا يسمع له..ويقول: ابتعدوا أنتم. واتركوهم لشأنهم

فلما جاءت الجلسة. حكم علينا بشهر حبس !

وكنا قد قضينا الشهر في الاعتقال تحت التحقيق قبل أن يصدر الحكم علينا في القضية. ولذلك أفرجوا عنا فور صدور الحكم. وفهمنا ساعتها لماذا كان القاضي يجدد حبسنا طوال شهر كامل. فهو لم يكن يريد لنا أن نقضي يوما

obeikandl.com

من الحكم في السجن بكل ما فيه من أهوال ومعاناة. وحرص على أن نبقى في تجديد الحبس حيث نلتقى بأهلنا ويأتينا طعامنا وننام حيث لا نخالط المجرمين في قضايا السرقة والقتل.

وبعد هذا الحكم علينا.. صدر القرار بفصلنا من الأزهر. ثم جاء النحاس باشا إلى الحكم فأتى بكل الملفات والدوسيهات الخاصة بالقضايا السياسية وقام بحرقها في مجلس الوزراء.. وأعادنا إلى الأزهر.

ماذا كان موقف الوالد من هذه المحنة.. وعن هذا الموقف يتذكر الشيخ قائلا في حوار له:

" كان والدي رجلا طيبا وحكيما ، ولم يقل لي يومها سوى تلك العبارة التي لا أزال أذكرها.. قال: " ما دمت عامل من نفسك راجل سياسي.. يبقى ما تهربش أبدا. ولازم تتحمل نتيجة عملك " !

كانت هذه إطلالة على جزء من ذاكرة هذا الرجل العظيم وإزاحة لبعض الغموض عن تلك الفترة التي تزخر فيها مصر بالنشاط الثوري والسياسي وهكذا كان الشيخ شعراوي نموذجا رائعاً لـــ " العالم العامل " ذلك النوع من العلماء الربّانيين والذين يطبقون ما علموا وتعلموا في حياتهم العملية فيصبح بذلك لهم دورا فعالاً في مجتمعاتهم ولهم تأثير عظيم في كل المخالطين لهم المريدين لعلمهم.. وهكذا نرى أن الشيخ كان فعالا ومتفاعلاً مع قضايا وطنه ودينه ومشاركاً في هموم جيله.. نسأل له الله العفو والمغفرة والرحمة.